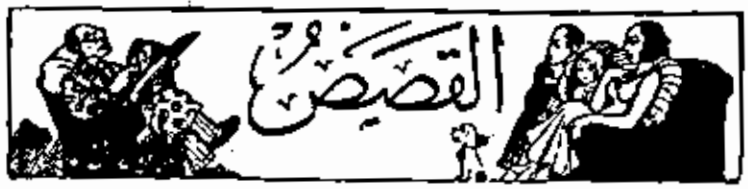

ليـــلة في الصرب

قصة للكاتب الإسباني بلاسكو أبانيز

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

الساعة الحادية عشرة ليلا ، تلك الساعة التي يغلق فيها مسرح باريس أبوابه . وقد أخليت المقاهي والمطاعم من روادها قبل ذلك بنصف ساعة .

وعلى أفريز الشارع ، وقفنا زمرة حائرين . كانت جموع الناس تخرج من أماكن اللهو فتختفي في ظلمات الشارع ، والمصابيح ترسل ضوءا خافتا سرعان ما يمتصه الظلام ، والسماء الحالكة تجتذب إليها الأنظار بتلألؤ أضوائها ، فيتطلع إليها الناس في نظرات من القلق . لقد كان ذلك الامتداد الفجائي للنور الكاشف أحيانا ما يكشف عن منطاد ، تغمره الأشعة فيبدو كالسيجار المتوهج .

وشعرنا بالرغبة في الاسترسال في سهرتنا . ترى أين نذهب وقد أغلقت باريس المكتئبة كل أبوابها ؟ — وحدثنا أحد الصربيين عن مطعم لفندق معين ، مفتوح الأبواب طول الليل ، يستقبل رواده من الضباط ، فيلقون إليه خلسة وكأنهم من أصحابه . وكان يتردد عليه سرا إخوان في السلاح من مختلف الأمم ، قد قدموا إلى باريس لقضاء بضعة أيام فيها . وقصدناه ، ودلفنا إلى قاعة استقباله في احتراس ، فشعرنا بالفارق الهائل بين أنواره الباهرة وظلام الليل المدلهم . كانت القاعة أشبه ما تكون بمدخل منار كبير ، وقد انعكست من مراياها عناقيد الثريات الكهربائية ، فخيل إلينا أننا ارتددنا بأعمارنا عدة سنوات . النساء وزيناتهن ، والشمبانيا ، وتنهدات القيثارة ، وزنجي يرقص وقد ارتعشت أجزاء جسمه في حرارة — كان كل ذلك من مشاهد عهد ما قبل الحرب . بيد أنه لم يكن هناك من الرجال من يرتدي لباس السهرة .

وكان الجميع من فرنسيين وبلجيكيين وانجليز وروسيين وصربيين — مرتدين حللهم الرسمية الرثة ، وقد علاها الغبار . وكان بعض الجنود الإنجليز يعزفون على القيثارة ، فيصفق لهم القوم في ابتسامات باردة كالرخام ، وقد جلسوا مكان فرقة الغجر الموسيقية . وأومأت السيدات إلى جندي منهم يهمس باسم والده اللورد — صاحب الملايين الشهير ، وهو ينشد قائلا « دعونا نبتهج أيها الأخوان ، فغدا نموت » .

كان كل هؤلاء الرجال الذين قربوا حياتهم لمذبح آلهة الحرب ، يشربون العرق في جرعات كبيرة ، ويضحكون وينشدون ، ويلقون بتحياتهم في حماس إلى أولئك الملاحين الناصرين الذين كانوا يقضون الليل على الشاطئ ، ثم يعودون في صباح اليوم التالي لمجابهة العاصفة في شجاعة .

ولاح على الضابطين الصربيين المرافقين لنا ، دلائل الرضا . فقد زج بهما وطنهما إلى باريس ، مدينة الأحلام ، تلك التي طالما ملأت أفكارهما أثناء إقامتهما للملة بمعسكر في بلدة ريفية . وكان كل منهما يعرف كيف يسرد قصته . موهبة عادية في بلد يكاد يكون كل من فيه شاعرا . فمنذ ماض لا مرتين بالمقاطعة التركية بالصرب وقتئذ منذ حوالى قرن ، عجب لما للشعر من أهمية في تلك المقاطعة : مقاطعة الرعاة والمحاربين . وكانت الأفكار والذكريات تنظم شعرا في أرض قل أن تجد فيها من يقرأ ويكتب . لقد مد المؤرخون الوطنيون من أجل الأليانة الصربية ، بما نظم من أناشيد جديدة .

وتذكر الضابطان وهما يحتسيان الشمبانيا ، بؤس أيام تراجعهما منذ أشهر مضت : الكفاح ضد الجوع والبرد ، والمعارك التي دارت على الجليد ، واحد ضد عشرة ، وفرار الناس والحيوان في ارتباك مفزع ، والمدافع الرشاشة والبنادق تنطلق دون انقطاع على مؤخرة الطابور ، والقرى المحترقة ، والجرحى ، والشريدون يئنون وسط اللهيب ، والنساء الشرهات وقد حامت حولهن الغربان ، وفرار الملك بطرس العجوز ، الكسيح من مرض الروماتزم ، دون أن يكون له معين سوى عصاه الخشبية ، وقد أخذ هو ومن معه من حاشيته يتسلقون الجبال ، نحو القامة ، صامتا ، يتحدى القدر وكأنه أحد ملوك عصر كبير .

وراقبت الضابطين الصربيين وهما يتحدثان . كان كلاهما فى غضارة الصبا ، قويا ، ممشوق القامة ، ذا أنف أقنى كأنه منقار النسر ، وشارب مدبب الطرف ، وقد انفلتت خصلات الشعر من تحت قبعتيهما الصغيرتين . وارتدى كلاهما حلة فى لون الخردل ، ولاح عليهما الهدوء الذى يضفى على الشجعان الدائبين على نفض الموت من فوق أكتافهم .

واسترسلا فى الحديث : تكلما عما حدث منذ شهور قلائل ، وكأنهما يتحدثان عن مغامرات ماركو كرايلوفتش « السيد » الصربى الذى تسلح بأفعى كأنها الحربة ، ليحارب بها شارب الدماء بالغابات ، ومال بهما الحديث إلى ذكريات طفولتهما القاسية

ثم قام صديقنا الفرنسى ، واستأذن ورحل ، وكان أحد الضابطين يقطع استماعه إلى الحديث بالتطلع إلى مائدة جانبية . كانت ترنو إليه عينان حالكتان ، تعلوهما قبعة من الريش الحريرى الأبيض ، ولاشك أنهما استرعتا ناظريه ، فذهب واقفا كأنما انجذب بدافع لا يقاوم ، وسار صوب تلك المائدة ، وإن هي إلا لحظات حتى اختفى ، واختفت معه القبعة الحريرية .

وتركت وحيداً مع الضابط الآخر ، وكان أسمر من رفيقه سناً وأقل منه حديثاً . وارتشف رشفة من قدحه وهو يتطلع إلى الساعة الموضوعة على المقصف . ثم ارتشف رشفة أخرى ؛ وأخيراً نظر إلىّ تلك النظرة التى تسبق دائما الإفضاء بسر خطير . وأدركت حاجته إلى الإدلاء إلىّ بحادث مؤلم يعذب ذاكرته ونظر إلى الساعة مرة أخرى : كانت الواحدة صباحا .

وعلى حين غرة ، أخذ يصيغ حديثه الصامت فى كلمات ، قال

— حدث ذلك فى هذا الوقت ، منذ أربعة أشهر ...

وأخذ يتابع حديثه ، وأنا أتخيل معه الليل الحالك ، والجليد الذى يغمر الوادى ، والجبال الناصعة البياض المغطاة بأشجار الزان والصنوبر ، وقد هزت الريح أفنانها فتساقطت منها ذرات البرد الأبيض . ورأيت أطلال قرية ، ترابط فيها فرقة صربية ، آخذة فى التراجع صوب البحر الأدرياتيكى .

كان صديقى يقود مؤخرة هذا الحرس ، كتلة من الرجال ، علة أصبحت الآن قطيعاً من الرعاع . وراقهم أهل القرى فى ذهول من الألم والخوف ، فيتحركون بلا إرادة كالآلات ، ويتساقطون إلى الأمام كالحيوانات ، وكانت النساء ، الداكنات ، المشوهات ، الذاويات ، يسرن فى صمت فاجع ، وينحنين على الأموات أثناء مرورهن فينزعن منهم بنادقهم وذخيرتهم .

وبدا الظلام متوهجا بضوء أحمر متلألئ من القنابل المتطايرة بين الأطلال . فاستجاب إليها أعماق الليل وأقبلت معه التوهجات القاتلة ، وأز فى الظلام الدامس الرصاص : حيوانات الليل الخفية

كان كالأفق الصباح ، يبدأ الهجوم ، وكانوا يجهلون عدد من هناك ، أولئك الذين يسطون صدمهم فى الظلام . أهم ألمان ؟ نمسويون ؟ بلغاريون ؟ أم أتراك ؟ . لقد فرض عليهم أن يجابهوا الكثيرين منهم .

واسترسل الصربى فى الحديث قال : « كان لا مناص لنا من التراجع ، مخلفين وراءنا أولئك الذين يسوقون تقهقرنا . وكان لزاما علينا أن نصل إلى الجبال قبل أن يتنفس الصبح »

وكان الطابور الطويل من النساء والأطفال والكهول وما اختلط بهم من قطيع الحيوانات قد ابتلعهم الليل ؛ ولم يبق فى القرية سوى الرجال القادرين ، يحاربون من مخابئهم بين الأطلال وقد أخذ جزء منهم فعلا فى التقهقر .

وبغتة ، انتابت الضابط ذكرى قاسية .

الجرحى ما الذى تفعله بهم ؟ كان أكثر من خمسين رجلا ممددين على القش فى حظيرة مزقت القنابل سقفها . رجال يعانون آلاما مبرحة ، رجال مذهولون ، يتململون فى نومهم ويئنون ، جنود أصيبوا بجراحهم منذ أيام مضت ، واستطاعوا أن يجروا أنفسهم جراً إلينا ، وجنود أصيبوا فى ذات الليلة يتبعهم سيل من الدم الجديد ، وقد ضمدت جراحهم بضمادات مستعملة ، ونساء أصبن بشظايا القنابل » ..

ودلف القائد إلى ذلك الملجأ الذى تفوح منه خبيث الروائح من الأجسام المتداعية ، والدم الجاف ، والملابس القذرة ، والأنفاس المتصاعدة ، وعندما تفوه بأول كلماته ، تحرك أولئك الذين لا تزال لديهم بقية من القوة ، فى تململ ومشقة تحت ضوء المصباح الوحيد المتعالى دخانه ، وصمتت الأنات ، صمتة الدهشة والرعب ، كما لو أن هؤلاء الرجال المحتضرين يخشون شيئا أكثر رهبة من الموت .

عن كتاب (كوكب السعود في كوكبة الجنود لابن إسحاق. ص ٧٧) إنه في غزوة الطائف استخدم المسلمون الدبابات المصنوعة من جلود الأبقار التي لا تتأثر كثيراً بمقذوفات العدو، وتقدموا بها نحو السور لإحراق الأمكنة المجاورة له. غير أن أفراد قبيلة ثقيف المحصورين في البلدة بدأوا يرمونها بقطع من الحديد المحماة بالنار — (حاشية ص ٢٥٠، ٢٥١ من المرجع السابق).

ويبحث الأستاذ محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» عن استخدام المسلمين الدبابات في غزوة الطائف بشيء من التفصيل، فيقول:

إنه لم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجئوا إلى وسائل غير التي ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظة وخيبر ... فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التي يهاجمونها بها؟ ...

وكان لبني دوس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون في حماية الدبابات. وكان أحد رؤسائها الطفيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر؛ وكان معه عند حصار الطائف؛ فأوفده النبي إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم؛ فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، ففر جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا. (حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٢٠، ٤٢١).

ويظهر أن الدبابات في السابق وإن كانت لها قيمة كبرى في الحروب لإخافة العدو وإثارة ضجيجهم، فإنها لم تنل حظاً في إحراز النصر حيث كانت عرضة للاحتراق، فإن موادها المركبة من الجلود والأخشاب كانت سريعة التأثر بالنار. وقد حاول المهندسون المسلمون عبثاً إيجاد بعض الوسائل لتقيها من الأخطار المعهودة. فاستعملوا الجلود المبلولة بالماء والمسقاة بالخل ولكنهم لم يفلحوا.

٣٣٠٤٢

ويحدثنا الأستاذ أحمد بدوي في مقال له تحت عنوان «القوة الحربية في مصر والشام» كتبه في مجلة الرسالة عدد ٨٠٩ وتاريخ ١٤ — مارث — ٩٤٩ نقلاً عن (النوادر لابن شداد، ص١٠٣) عن عظمة الدبابات التي استخدمها العدو في حصار عكا، بما يلي:

«صنع العدو ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران؛ وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً، ويئس المحاصرون في المدينة، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرّها قرب السور. وأعمل صلاح الدين فكره في إحراقها ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك. وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه إن له صناعة في أحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحصلت الأدوية التي يعرفها أحرقها، فحصل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقت فيه، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب. وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعل كالذي قبله فاشتد ضجيج الفئتين، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب. وغشي الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوي الأحلام».

وحسب ما نعلم كانت هذه المواد هي زيت النفط والكبريت والجير والقار فتتكون من خلطها النار اليونانية. وقد أشار إلى استعمال المسلمين هذه النار في الحروب الصليبية الأستاذ كرستاف لوبون في كتابه (المدنية العربية، ص ٥١٤، ٥١٥).

ويروي الأستاذ أحمد بدوي في المقال السابق الذكر نقلاً عن (خطط المقريزي، ج ١ ص ٣٤٧) أن الفرنج هاجموا دمياط سنة ٦١٥ في آخر أيام العادل وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً متحركة